الماء في شعر قيس بن الملوح

الكلمات المفتاحية: ماء، قيس بن الملوح، شعر.

أ.م.د. آن تحسين محمود الجلبي
جامعة الموصل/كلية الآداب
annalchalabi@gmail.com

تاريخ استلام البحث٢٠٢٢/١٢/٢٦ تاريخ قبول نشر البحث٢٠٢٣/١/٨

الملخص

يرتبط الماء في التراث الادبي الانساني بالحياة والبقاء والولادة والخلق والتطهير والخصوبة والامل. ويحضر في شعر قيس بن الملوح بصور مختلفة مستوعباً بذلك تحولات الشاعر العاطفية وانعطافاته الوجدانية والروحية ليغدو رمزاً للحب الذي يحيا به، وفيه تحقق ذاته فعل الحياة، وبفقده تقفر حياته وتجف روحياً وفكرياً. ويمتاز حضور الماء في شعره بين صورة "المياه العليا" وصورة "المياه السفلى" ، اذ تمثلت الاولى بصورة المحتمل والمتوقع والمؤمل، وان تحولت احياناً الى غيوم حاجبة للضوء معتمة للحياة، وتمثل الثانية صورة الواقع المستمر بالجريان والتقلب والتحول والذي يشكل احياناً قوة تدميرية ناسفة. وفي ظل هذا وذاك، يعيش الشاعر كل الطقوس المائية، فغامت حياته تارة، وامطرت اخرى.

توطئة Foreword:

بدأت الحياة المبكرة من الماء، فهو مصدرها ومقرر مصيرها، فبدونه تغيب وبحضوره تحضر. وبناء على جوهريته ووجوده الحيوي، تشكلت له تأويلات، فهو المعرفة والحياة والانبعاث والتحول والخصوبة والحركة والتغيير والجمود والصمت وغضب الطبيعة والهلاك، وهو المرونة والنقاء. وارتبط بثيمات الولادة والخلق والابداع، فضلا عن الخراب والنسيان. ويمثل سطح الماء نوعا من المرايا كما في اسطورة نرسيس، ومنه جاءت فينوس ، ولدت من رغوته، وكانت ربة الحب والجمال والفنون في عصرها الغابر، واليه عادت اوفيليا، فشكل صورة قبر نهائي وخاتمة رحلتها الاخيرة.

والماء هو القوة المحركة لسيرورة الحياة والحضارة الانسانية بما يشبه الطابع الأمومي الانثوي الواهب والحارس، فقربه تأسست أهم الحضارات، وشكل عائقاً جغرافياً طبيعياً حامياً من غزو حضارة لأخرى. وعلى الرغم من انه بلاشكل، فأن الثقافات القديمة ميزت بين نوعين من المياه: المياه العليا والمياه السفلى[١]. تمثّلت الأولى بالكامن والممكن، والثانية بالواقع

والحاضر. والماء هو أول ما خلق الله، حسب سفر التكوين، ومنه انبجست اليابسة. وصورة الغطس التطهيري في الماء ما هي الا محاولة للعودة الى مرحلة ما قبل التشكل وفيها معنى الأنبعاث والولادة الجديدة، ويمثل الماء،هنا، رمز الخلاص الروحي. وارتباط الماء بالتعميد، كما اعتمدته الصابئة مثلا، فيأتي من فكرة ان الماء يطهر الجسد او الشيء كما يطهر المطر الطبيعة ويبعد عنها الجفاف والتصحر. وقد ورد الماء تعويذة لأبعاد الشرور في العراق القديم بين مردوخ ووالده آيا، جاء فيها:(٢)

هيا بني يا مردوخ

خذ طابا

واملأه من مصب النهرين

واقرأ على هذه الماء تعويذتك المطهرة.

وللماء معنى الدينامية الأبدية والانتقال والهجرة ، فكل أشكال الماء العليا والسفلى في هجرة وانتقال. وان حضر الماء بصورة الراكد والثابت، فأنه قادم من متحرك الا وهو النهر او البحر او المحيط او الجدول والرافد والمطر وغيرها. فهو في حركة بحث واحياء لا تتوقف. لذا فللماء صورة الغامض وغير المكتشف، وهو العميق والمتسع. ويمتلك من القوة ما يحدث الكوارث الطبيعية والفيضانات المهلكة، مع ذلك فهو مصدر لتوليد الطاقة الكهربائية، فهو منتج الضوء والنور. اي، ان للماء سمات تدميرية واخرى بنائية.

ومعنى ان الماء مسؤول عن اعادة الولادة والأنبعاث، فأنها تحتمل ان تكون ولادة روحية وفكرية ايضا. ومن هذا المنطلق، يكون التغيير والتحول. ولو مضينا في قراءة تاريخية، نجد الحياة المبكرة ولدت على سرير الماء، فكان، وما زال، مصدرها ومقرر مصيرها.

ويحضر الماء في سفر التكوين"في البدء خلق الله السموات والارض، وكانت الأرض خاوية خالية، وعلى وجه القمر ظلام، و روح الله يرف على وجه الماء".(٣) فشكل مسرى مقدساً. وفي الموروث اليهودي، نجد موسى الرضيع وضع في سلة على ماء النيل، في صورة الماء المنقذ من الموت. وفي صورة اخرى للماء، بعد ان حل باليهود العطش عند خروجهم مع موسى اوشكوا على الهلاك "لولا ان سقاهم ماء فأطفأ ظمأهم، وعادت اليهم الحياة بأمر من الرب".(٤) فهو ماء النجاة والخلاص الذي في صورة نقيضة منح الله موسى قدرة على تحويل مياه النيل الى تيارات تدميرية.

وارتبط الماء في حياة السيد المسيح بحدثين: الاول، المشي على سطح الماء. والثاني، معجزة تحويل الماء الى نبيذ. [٥] والماء في النصوص القرآنية أساس الخلق" فلينظر الانسان مما خلق. خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب" (سورة الطارق: 5,6,7) . و روي عن ابن عباس انه قال: "لما اراد الله ان يخلق الماء، خلق ياقوتته الخضراء، لا يعلم طولها وعرضها الا الله سبحانه وتعالى، ثم نظر بعين الهيبة فذابت وصارت ماء، فاضطرب الماء، فخلق الريح ووضع عليها الماء، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء" وعليه كان قوله تعالى " وكان عرشه على الماء" (سورة هود:7) . [٦]

ومن اشكال المياه العليا، تبدو السحب والغيوم صوراً للحياة العليا المهاجرة عمودياً من اصل مياه سطحية، الى هبوطها بهيئة امطار وثلوج وبرد بما يشبه رسل سماوية قادمة للأرض. وهكذا، يغير الماء اشكاله على نحو مستمر، ويغير شكل المكان الذي يحضر فيه، فهو من قوى الطبيعة المحركة والفاعلة، وهو الولادة والنقاء والخصوبة والحياة، رغم انه يحضر بدلالات متناقضة ايضاً، فهو قد يمتلك سمات عدائية باعثة لصور الموت والعنف والغضب. وان كان سطحه منساباً ترحيبياً ووعداً بالحرية، فأن اعماقه غامضة مبهمة عصية وقاتلة.

واتخذ الماء في الثقافات القديمة بعداً اسطورياً. ففي مصر القديمة، مثل الماء اصل الكون. وكانت مياه النيل مياه الخير والنماء. والنيل عندهم ابو الالهة، وسمي الاله "نون"، اي "رب الماء الأزلي".[٧] وفي هذا نوع من التقديس. وفي اساطير سومر، في العراق القديم، كان الاله "انكى" اله الماء والحكمة في الوقت ذاته، وكان يملأ دجلة بالمياه العذبة المانحة للحياة.[٨] وفي اساطير أكاد، بابل وأشور، قسم البابليون العالم الى ثلاثة اجزاء: السماوات والارض والبحر. وعدوا كل قسم منها مقدساً بذاته. ولكن القدسية الكبرى كانت للبحر، فهو ماء "العمق العظيم" الذي انبثقت منه الكائنات جميعها. وكان البابليون يرون الماء واهب الحياة ومدمرها.[٩] لذا، فليس للماء وجه واحد. وتمت النظرة اليه بطرائق مختلفة.

وفضلاً عن حضور الماء الايجابي، يحضر في النص القرآني بصور سلبية عقابية مهلكة، "ويسقى من ماء صديد الماء" (سورة ابراهيم:16)، و"يغاث بماء كالمهل يشوي الوجوه" (سورة الكهف:29)، و"وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوماً فاسقين" (سورة الذاريات:46) . ويتفق أهل العلم، حسب المسعودي، على ان الله خلق الأشياء على غير مثال، وابتدعها من غير أصل، وان أول ما خلق الله هو الماء. وكان عرشه عليه.[١٠] وفي هذا معنى لقدسية

الماء. وان عدنا الى عصر ما قبل الاسلام، نجد ان العرب منحوا الماء قدسية كبرى، فقد نصبوا صنمهم "هبل" قرب بئر في جوف الكعبة. ووضعوا "مناة" عند شط بين مكة والمدينة. وانهم وضعوا "أساف ونائلة" قرب زمزم. (١١) وقد نظروا من خلال ذلك الى الماء بنظرة تتسم بالقدسية.

وفلسفياً، يرى باشلار في قراءته للماء بأنه "يقود الارض، انه دم الارض، انه حياة الارض" (١٢)فهو يقود حركية الارض وديناميتها وتحولها. فالماء "بوصفه مادة، لا للحلم وحده، وانما للحياة برمتها، وبوصفه رمزا كيانيا، مكان عناق بين ما يجري ويمضي، وما يثبت ويتجدد، كأنه الأليف الغريب، الغائب الحاضر، كأنه الوجود، صورة ومعنى، سطحه نفسه هو عمقه، سنرى كيف يأخذ دلالته الاكثر شمولاً عندما يقترن بالنار والتراب، اذ يبدو انذاك رمزاً لموت الكائن متواصلاً في ولادة متواصلة".(١٣) وبهذا يكون للماء صورته التوليدية اللانهائية وغير المحدودة. ويرى الشاعر لامارتين الماء رؤية مختلفة، فهو الحزين الباكي مع الناس، وما هو الا دموع العالم.(١٤) وتبدو ان فكرة الحزن، هنا، ترتبط بصورة الماء الهارب والمهاجر دائماً، او بصورة الدموع وهجرتها من العين، تلك البقعة الناضحة بالماء.

والماء "يهطل كل يوم ، وعلى الدوام ينتهي بموته الأفقي، ان موت الماء اكثر حلمية من موت التراب، لا نهائي هو عذاب الماء".(١٥) وبهذا المعنى ، يكون الماء الميت معبراً عن مشاعر الحزن والغضب والخسارة والفقد الذي يمر به الأنسان. وموت الماء يتميز عن موت التراب، بوصف الماء اساس كل شيء حي، وحاجة وجودية لازمة، وان وفاة هذه القيمة الوجودية العالية والمهمة معناه انعدام الحياة والموت. وكون الماء اكثر حلمية، فهو يمتلك معاني مختلفة ومتغيرة حسب اشكال حضوره.

الماء في شعر قيس بن الملوح

يحضر الماء في شعر قيس بن الملوح حضوراً شمولياً بكل معاني الحركة والتقلبات والتحول. فالماء ليس مجرد مادة للخلق، بل ثمة "ذاتية" فيه، باستثمارها يضيف الشاعر صوراً الى الواقع. فلا يحضر الماء جزافاً في نص ابن الملوح، وانما يرتبط بمحفز يحركه، وهذا المحفز يتراوح بين الروحي والمادي. فهو يوظف الماء كقوة دلالية وايحائية وكونية. وترد صور الماء في شعره مرتبطاً بليلى، وهي:

ماء الحياة:

يمثل الماء، هنا، انتصارا للحياة على العطش والجفاف ببعديهما الروحي والمادي. فـ"ليلى" هي "ماء الحياة" بما تمتلكه من قدرة على منح الشاعر الحياة التي يسعى اليها. اذ يقول: (١٦)

كأني غداة البين رهن منية أخو ظمأ سدت عليه المشارع
تخلس من يهواه ماء حياته فلا الشرب مبذولٌ ولا هو ناقع
عراض المطا قب البطون كأنما وعى السر منهن الغمام اللوامع
تحملن من ذات التناضب وانبرت لهن بأطراف العيون المدامع

فحضور الحبيبة يماثل حضور الماء، وغيابا غيابه. حضورها يعني الأرتواء، وغيابها يعني العطش. حضورها يعني الحياة، وغيابها هو الموت، فهي "ماء الحياة"، به يتمكن الشاعر من مواصلة حياته، وبفقده يبدو محروماً يتطلع الى شربة تروي ظمأه. فدورة مشاعرنا في الحياة تشابه دورة المياه في الطبيعة. فالماء يعيد للأراضي الجافة انتعاشها. والحبيبة تهب الشاعر القدرة على حماية حياته والحفاظ عليها.

ويقول قيس بن الملوح في العطش/الفقد:(١٧)

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

ففقد الحبيبة هو الألم المرتبط بالعطش والهلاك. وان كان الحب هو الشعور المكثف، فأن الفقد هو توقف لوظيفة الروح المحبة وجفافها. والشاعر يوضح فقدانه لليلى وصعوبة استعادتها. وبهذا المعنى، الماء تجاوز للعطش، والحبيبة تجاوز للموت.

ماء الذكرى:

يوضح اثر ماء الذكرى في شعر ابن الملوح فضلا عن صورة الماء المادية قوة اثر الذاكرة بما تحمله من تجربة شعورية ماضية مر بها الشاعر فعادت مزيجا من الالم والفرح. ويرتبط الماء بالذكرى في "وادي المياه"، اذ يقول:(١٨)

ألا لا أرى وادي المياه يثيب ولا النفس عن وادي المياه تطيب
أحب هبوط الواديين وأنني لمشتهرٌ بالواديين غريب
أحقاً عباد الله ان لست وارداً ولا صادراً الا علي رقيب

ان حضور المياه، ولا سيما الجارية، في شعر المجنون كان على الغالب مكاناً للذكرى في حاضر تهيمن عليه صورة المنع والحاجة الروحية. فقربه من الماء يعني قربه من الحرية

والحب. فهذه المياه تعيد الى السطح كل امنيات الماضي التي يراها الشاعر لم تتحقق وتبتعد. وان كانت سيولة المياه صورة من صور حريته، فالشاعر يخلق موازنة بين حبه لوادي المياه وغربته في بيئة تهيمن على مناخها طقس الفقد. فوادي المياه لا يقابل الاحسان بمثله، بل هو مكان طارد. ورغم شحة مائه، يتأمل الشاعر البقاء قربه فهو حامل ذكريات لا تنسى من الحبيبة وايامها. الشاعر يستمد الحياة من الذكرى التي يمنحها وادي المياه الشحيحة القادرة رغم شحتها وقلتها على بث الحياة في عالم الشاعر القاحل بسبب فراق الحبيبة. ورغم غربته في ذلك المكان الذي غابت عنه الحبيبة، يتعلق الشاعر به ويحبه فهو المكان الذي احتضنها.

الماء الواهب المقدس:

ويتمثل الماء المقدس بمعنى الواهب للحياة في الارض القاحلة، ومانح الامل بالبقاء. فيستحضر ابن الملوح قدسية ذلك الواهب الكبير، زمزم، بما تحمله من رمزية وقوة روحية بقوله:(١٩)

حلفت لها بالمشعرين وزمزم وذو العرش فوق المقسمين رقيب
لئن كان برد الماء حران صادياً الي حبيباً انها لحبيب
واني لآتيها وفي النفس هجرها بتاتاً لأخرى الدهر او لتثيب
فما هو الا ان اراها فجاءة فأبهت حتى ما أكاد أجيب

فأن كان الماء الدافيء يحمل معاني الحنان والأحسان والايجابية، فأن برودته تدل على اللامبالاة والحزن وغياب الحب والتواصل. مع ذلك، تأتي صورة الماء البارد في شعره بمعنى ايجابي، فحضور الحبيبة عنده يماثل حضور الماء البارد للصائم، فهو يقول:(٢٠)

هجرتك اياماً بذي الغمر أنني على هجر ايامم بذي الغمر نادم
ألم تعلمي أني اهيم بذكرها على حين لا يبقى على الوصل هائم
أظل أمني النفس اياك خالياً كما يتمنى بارد الماء صائم

يحضر الماء، فيغيب العطش والحرمان والمنع. وحضور الماء البارد للصائم نعمة يستطيبها الانسان في طقس مفعم بالحياة والفرح. والشاعر يمني النفس ويضخ فيها ماء الامل. وهكذا، يكون حضور الحبيبة لروحه العطشى كبرد الشراب، اذ يقول:(٢١)

كلامك أشهى فأعلمي لو أناله الى النفس من برد الشراب على الظمأ

فرغبات الشاعر وعواطفه واحتراقه تختزل في صورة الماء الذي تمثل بكلام الحبيبة، بما يضمه من مادة الحياة واصل وجودها.

الماء / النار:

تحضر ثنائية الماء/النار في شعر ابن الملوح بما تملكه من تضاد وصراع ازلي بينهما. فالماءيحيي ويطفيء، والنار تجفف وتحرق، ليس الجفاف في الطبيعة الخارجية حسب، بل حتى في دواخلنا، فيقول:(٢٢)

أقول لأصحابي وقد طلبوا الصلى تعالوا اصطلوا ان خفتم القر من صدري
فأن لهيب النار بين جوانحي اذا ذكرت ليلى أحر من الجمر
فقالوا نريد الماء نسقي ونستقي فقلت تعالوا فاستقوا الماء من نهري
فقالوا وأين النهر قلت مدامعي سيغنيكم دمع الجفون عن الحفر
فقالوا ولم هذا فقلت من الهوى فقالوا لحاك الله قلت اسمعوا عذري

فالماء والنار عنصران من عناصر الطبيعة الاربعة، فضلا عن الهواء والتراب. وهذان العنصران يحضران ليس في العالم الخارجي المادي حسب، بل ايضاً جزءاً من جسد الانسان وروحه. وان كانت النار ،هنا، هي الذكرى وما تحمله من فضاء روحاني وعاطفي، كان الماء اكثر مادية بحضوره في صورة الدمع. وان كانت فكرة النار ترتبط بالحب ودفء المشاعر والضوء، فأن الماء هنا يتمثل بالدمع والحلم.

ماء المزن:

ومياه المزن هي من المياه العليا، وهي الفاصل بين السماء والارض ، فهي ماء قادمة من السماء. وتمثل رسائلها اعادة الانبعاث، والعتمة. وترتبط في الشعر بحالات عاطفية وبظروف حياتية مختلفة. ولهذه المياه القدرة على جمع الفرقاء الذين تبعدهم المسافة، فهي تجوب المسافة بينهم. فضلا عن ذلك، لماء المزن غطاء يحجب النور والضوء، فهي صديقة العتمة والحزن.وهي المياه التي تمثل صورة الطبيعة المتغيرة للحياة. اذ تمنح هذه المياه ثروة عاطفية، لا سيما عندما يساوي الشاعر حبيبته بماء المزن، اذ يقول:(٢٣)

فلو كنت ماء كنت من ماء مزنة ولو كنت نوماً كنت من غفوة الفجر

فما تحمله مياه المزن من رسائل العطاء والأنبعاث والولادة والامل والخير والحياة والتجدد والربيع، وما تتجلى فيه قدرة الماء على احياء الارض بعد موتها، وتجعل ساكنها، اي الارض،

متفائلاً بالقادم من نعمة الامر الذي يجعل الكثير من الثقافات والأمم تحتفي بالمطر بطقوس خاصة، وهذا يشابه احتفاء الشاعر بحبيبته ليلى، فهي "ماء مزنة" محملة بالأمل والحب والحياة.

-ماء التطهير والخلاص:

ان الوظيفة التطهيرية للماء تجعله يمتلك قيمة اجتماعية وثقافية. وان حضور الماء بوصفه مطهراً روحياً ومادياً فضلا عن استخدامه للشرب والسقي جعل الأمم القديمة تبني حضاراتها قرب الانهار والبحار. فحضور الماء يعني حضور الحياة. وان فكرة التعميد والتطهير لا تشير الى تنظيف الروح فقط، بل الى موت الروح الشريرة ايضا. وبهذا العمق الشعري تحضر ليلى في نص ابن الملوح بصورة ماء الخلاص والتطهير، اذ يقول:(٢٤)

وجاءوا اليه بالتعاويذ والرقى وصبوا عليه الماء من ألم النكس

وقالوا به من أعين الجن نظرة ولو عقلوا قالوا به نظرة الأنس

والماء، هنا، ليس عنصراً لتطهير البدن حسب، بل هو لتطهير الروح ايضاً. وكأنه في طقس تعميدي يحول المرء من حال الى حال بما يشبه ولادة روحية ثانية للشاعر، فهو "المجنون" حباً، الصفة التي صارت هوية الشاعر، وان علاجه التعميد والتطهير من هذا المس كما كان يعالج الممسوس بالجن في عصره. ويقول:(٢٥)

مفلجة الأنياب لو أن ريقها يداوى به الموتى لقاموا من القبر

يمنح الشاعر لليلى قدرة اعجازية/ احيائية، فقد صورها تصويراً اسطورياً بأمتلاكها القدرة على احياء الموتى وبعثهم وبث الحياة في اجسادهم الميتة. والاحياء، هنا، يحتمل الاحياء المادي والروحي معا، فهو بث روح في جسد الشاعر، فالشاعر في فقد حبيبته يشبه الجسد بلا حياة، فحضور ليلى يماثل عودة الروح الى جسده.

ومن معاني الماء في شعر ابن الملوح حضوره بوصفه دواء، قوله:(٢٦)

فأشرب من ماء الحجيلاء شربة يداوى بها قبل الممات عليل

فكما الماء يعيد للارض حياتها، يعيد ماء الحجيلاء/ليلى لجسد الشاعر و روحه المتعبة حيويته.

ماء العين/ الدموع:

تمثل صورة الدموع عمق حالة الاحباط التي يعانيها الشاعر تجاه غياب "ليلى"، الحدث الذي يساهم في انتاج تصورات وانفعالات، فمثلت بذلك تفسيرا عينياً لحالة وجدانه المنكسرة الى درجة عالية من الالم النفسي. في هذا المناخ الذي يسوده الحزن والوحشه والأسف، كان الشاعر قادرا على تصوير حزنه ومعاناته وجلب الانتباه الى الجانب الاكثر عتمة من الحياة، فيقول:(٢٧)

ومما شجاني انها يوم ودعت تولت وماء العين في الجفن حائر
فلما أعادت من بعيد بنظرة الي التفاتاً اسلمته المحاجر

فللدمع طبيعة في كونه يربط الداخل الانساني بالعالم الخارجي، الروحي بالمادي، والعاطفي بالجسدي. فلحظة الحزن التي يبثها الفقد هي اللحظة الأكثر سواداً وعتمة في الحياة. فالشاعر يذرف الدمع ويعاني من اليأس. والدموع لا تمتلك القدرة على ان تحيل الماضي واقعاً او تصنع حاضرا جديدا. وان كان الوقت والفضاء غير محددين، فحياة المرء/الشاعر محددة. كل هذا المناخ النصي البكائي يقدم لنا عمق الشعور بالفقد. ويقول:(٢٨)

أان هتفت يوماً بواد حمامةٌ بكيت ولم يعذرك بالجهل عاذر
دعت ساق حر بعدما علت الضحى فهاج لك الاحزان أن ناح طائر
تغنى الضحى والصبح في مرجحنة ثاف الاعالي تحتها الماء حائر

والبكاء استجابة طبيعية لعمق العاطفة وشدتها، وكأنها مقطوعة مرثاة للذات، فالشاعر يبكي في مواجهة هذا الرسول/الحمامة من سوء مصيره في رفقة مكان يناجيها ويتناجى معها.وتحضر الحمامة هنا بما تمتلكه من معاني الحب والسلام والألفة والوفاء، فالحمامة تميل الى البقاء مع شريكها في المكان فصلاً كاملاً. وان كانت الطبيعة هي معلمتنا ومحرك عواطفنا في جزء كبير منها، فأن الحمامة من رسل هذه الطبيعة، وهتافها في النص رسالة تذكير بليلى مما يشعل في قلب الشاعر جذوة الشوق الى عودتها.والمكان/الوادي موقع البكاء ووادي الدموع ومحطة الشاعر في رحلته الروحية والمادية. الوادي الذي يمثل المنخفض الكبير في حياته العاطفية والروحية.

ويقول في دموعه وبكائه:(٢٩)

أبيت صريع الحب أبكي من الهوى ودمعي على خدي يفيض ويسجم
الا ان دمع الصب عما يجنه وان لم يفه يوماً به متكلم

لساني عيى في الهوى وهو ناطقٌ ودمعي فصيحٌ في الهوى وهو اعجم

يمكن ان يكون الحب القوة التي تلهم الانسان على التضحية من اجل الاخر، و يمكن ايضا ان يكون قوة سامة تؤدي بالانسان الى الجنون. ولان الشاعر اضاع نفسه في الماضي، ومارس انكساره الراهن، صار الدمع اداة تعبيره عن دواخله ولواعجه ومشاعره التي تحركها صورة الغياب والفقد، ويعلن عن حزنه ووده للحبيبة/ ليلى. فكانت دموعه لغته، بما يمتلك الدمع من محمول دال على الحزن. وكأنه يقترح فكرة ان الدموع والبكاء يجعل الحب اكثر قيمة، وان مشاعره فاضت عن حدود قلبه، وانسكبت من عينيه.

- ماء الشوق:

والشوق صورة من صور العطش الروحي الذي تحركه الرغبة الجامحة، والذي يشتمل على معاني الحماس مع نفاذ الصبر بسبب غياب الحبية ليلى التي تمثل الماء الذي يروي ظمأه وعطشه الروحي، فيقول:(٣٠)

زرعن الهوى في القلب ثم سقينه صبابات ماء الشوق بالأعين النجل

والزراعة ،هنا، تحمل معاني الديمومة والثبات والاستقرار والنمو والأمل بالقادم. فكان الحب بمثابة النبتة التي يزرعها الانسان ويسقيها. يتعامل الشاعر مع الحب تعامل المزارع مع الشجرة، فهو يزرعها ويسقيها ليجني ثمارها ويستفيء بظلها.

ماء البحر:

وللبحر صورة اللانهائي والأمل والحقيقة والقوة الابداعية للطبيعة. وهو يمثل الحياة، فللحياة امواجها وتقلباتها. ويحضر في نص الشاعر دالا على عمق العواطف الانسانية وسعتها .فيصف ليلى بأنها "سيدة البحر"، حين يقول:(٣١)

ولو كانت تسوس البحر ليلى صدرنا عن شرائعه ظماء

فليلى شحيحة الوصل الى الحد الذي انها لو كانت تمتلك القدرة على قيادة البحر لما روت للشاعر ظمأه، وهو المحب الذي يتمنى لو كان هو وليلى حوتين في بحر، فيقول:(٣٢)

الا ليتنا حوتان في البحر نرتمي إذا نحن امسينا نلجج في البحر

يختار الشاعر مكاناً بعيداً عن سلطة البشر وعيونهم. وللبحر تيار يسير في اتجاه واحد، على العكس من اليابسة المتشابكة الطرق، بل التي تغيب فيها الطرق احياناً. ولأن للحوت سلطته وهيمنته على المكان الذي هو فيه، فله القدرة على التحكم بمحيطه بأرادته.

فالشاعر يبحث عن ليلى، فهي "درة البحر"، قائلاً:(٣٣)

كانت كدرة بحر غاص غائصها فأسلمتها يداه بعد ما قدرا

و"درة البحر" عسيرة على الوصل، وبعيدة عن العين. وهي الثمينة النادرة، وان الحصول عليها انجاز كبير، وفقدانها خسارة لا تعوض. وليلى، هنا، دافع وجودي كبير يستحق المغامرة والعناء والبحث دون كلل.

ولكنه بعيد عن "ليلى"، قريبٌ من الام فقدها، اذ يقول:(٣٤)

وكم زفرة لي لو على البحر أشرقت لأنشفه حر لها ولهيب

فحرارة العاطفة والشوق يمكنها ان تجفف "ماء البحر" على سعته وامتداده وتضارب امواجه. فالشاعر يرى الاشياء بعدسة روحه المكبرة. والبحر ،هنا، يشبه الحياة ذاتها في جريانها ومسارها الخطي ، وفي مدها وجزرها، وصعوبة المضي عكس تيار ظروفها العنيد. فحياته بدونها قاع صفصف لا نبات فيه ولا حياة، بل ما يتركه البحر الجاف بعد جفافه.

ولليلى القدرة على تحويل ماء البحر المالح الى عذب صاف، فيقول:(٣٥)

لو تفلت في البحر والبحر مالح لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

يمنح الشاعر لليلى قدرة اسطورية خارقة على تحويل الاشياء من حال الى حال، تحويل ماء البحر ذي الملوحة العالية الى ماء عذب زلال. وله القدرة على تحويل حياة الشاعر من واقعها الكئيب الى حاضر يستحق العيش.

ماء البئر:

يشكل حضور البئر رمزياً وحرفياً ايضا اهميته بأهمية موقعه المركزي في الثقافة العربية القديمة. فمنه يستقي الناس مادتهم الاساسية للحياة/الماء. ومجازياً، يمثل مورداً ضرورياً للناس يساهم في بقائهم على قيد الحياة واقامتهم جواره. وبذلك، يحمل البئر رمزية الحياة. وقد كان حضوره جلياً في قصة اسماعيل والبحث عن الماء. ولأن البئر حاوية الماء الطبيعية، فهو واهب مستمر له. ويشبه الشاعر حالة حبه لليلى بـ "دلاء البئر" المعلقة، اذ يقول:(٣٦)

كيف وحبها علق بقلبي كما علقت بأرشية دلاء

يربط الشاعر حبه لليلى وثباته بتعلق الدلاء بحبالها. والبئر يمثل العمق والخوف والصمت والحياة لأمتلاكه عنصر الماء.فالعمق الذي تصله الدلاء هو العمق الذي يسكن حبه فيه. وحب الشاعر هو قوته التي تلهمه وتبث في روحه معاني التضحية من اجل الحبيبة/ ليلى.

-ماء السيل:

يمثل السيل غضب الطبيعة وسخطها بما يجلبه من تغيير شامل ودمار للمكان الذي يمر به. مع انه، يحضر بصورة الخلاص كما في طوفان نوح، فلم يكن الخلاص الا بصعود السفينة. وعادة، ترافق السيل امطار وعواصف ورياح. وهو يصور الحضور المفاجيء والهائل للماء الذي يجعل الانسان عاجزاً عن مواجهة تياره العنيف. وحينما تهيمن العاطفة على الانسان فأنها تشابه بذلك حضور السيل بقوتها وما يحمله من دهشة لكل من يراه. فتكون طرق افكار الشاعر غارقة يعلوها السيل ويكون الشاعر عاجزاً و عالقاً ومستسلماً.

قد يكون الحب قوة سامة تؤدي الى الجنون، لا سيما اذا كان الفقد مصيره الحتمي. ولأن الشاعر منكسر وضائع في وحدته، كانت الدموع اداة تعبيره عن دواخله وشجونه ومشاعره العميقة بالحزن. الماء رسول الرحيل، اذ يقول:(٣٧)

جرى السيل فأستبكاني السيل اذ جرى وفاضت له من مقلتي غروب

وما ذاك الا حين ايقنت انه يكون بواد انت منه قريب

فالسيل يعطي تفصيلا كبيرا عن الطبيعة القاسية للماء وقدرته على تدمير كل ما يعترض سبيله. وعادة السيل ان يجري بأيقاع سريع، وان لحظاته الاكثر خطورة تكمن في عدم ثباته في موضع، حاله في ذلك حال الحياة ذاتها. فالسيل في موضع ليلى يقلق الشاعر، فهو تدميري ومهدد للحياة.وان كان هذا السيل هو المناخ المهيمن، فأن ثيمة الحب وقوة العاطفة هيمنت على البعد الروحي للنص. فالشاعر يجد نفسه عاجزاً امام قوة الطبيعة وعنف الماء الذي يغطي معالم المكان، ويمحو اثر وذكريات لا ينساها الشاعر.

-الندى:

اذا كان الموت هو الجفاف، فان الندى هو الحياة. وهي من المياه المهاجرة التي تحضر في بيئة جديدة على اوراق نبتة او بتلات زهرة. وحضورها على سطح النبات بصورة كأنها تحدق في السماء التي هبطت منها. فهي بذلك تشابه روح الشاعر المهاجرة والفاقدة.يقول:(٣٨)

تكاد يدي تندى اذا لمستها وينبت في اطرافها الورق الخضر

ووجهٌ له ديباجةٌ قرشيةٌ به تكشف البلوى ويستنزل القطر

واني لتعروني لذكراك نفضةٌ كما انتفض العصفور بلله القطر

وللندى معنى الانتعاش وقوة الحب التي تنعش ليس النبات لوحده، وانما روح الشاعر الذي استخدمها بمعنى الاحياء والانبعاث. والقطر يشتمل على معاني اعادة الولادة والعطاء ومغادرة الجفاف. وانتفاضة العصفور فيها انبعاث ودهشة وصحوة. فالعصفور يعاني في وحدته، فتضيف بلل القطر على طقسه صبغة الحزن والوحشة و رجفة والم ونقطة تحول من حال الى حال، فنزول المطر قطع عليه عزلته، واعاد احساسه بالمكان والواقع. وهذا دليل على ان حياة الشاعر كأنها لم تتوقع ما سيحدث، كحال العصفور ودهشته، مما جعل الشاعر يشعر بأن تغير الحياة اصبح امراً حتمياً. ويحمل المطر، هنا، صفة سلبية ، على الرغم من ايجابياته لأنه حرك الشاعر واعاد اليه صحوته، واعاده الى واقعه المؤلم.

الخاتمة Conclusion

يقارن الشاعر قيس بن الملوح بين ثنائية العاطفة الانسانية والطبيعة بالتأكيد على صورة الماءليس بوصفه اصل الحياة ومصدرها وباعث تجددها واستمراريتها حسب، بل بوصفه هادماً ومدمراً لها. فشعره يدور حول ثنائية حضور الماء/غيابه و حضور الحبيبة/غيابها . فالحضور هو الحياة والاخضرار والبقاء، بينما الغياب هو الجدب والقفر واليباس والموت. وبذلك، تمثل الحبيبة/ليلى صورة "ماء الحياة" و "ماء الفضاء" و"ماء المزن" و "ماء السحاب" بما يمثل صور "المياه العليا"، فضلا عن "ماء البحر" و"ماء النهر" و "ماء البئر" بوصفها "مياه سفلى". فتحضر الحبيبة/ليلى بصورة المياه العذبة التي تروي ظمأه، وهي الخارقة القادرة على تحويل المياه المالحة الى مياه عذبة.

وتحضر في نصوص الشاعر ثنائية النار/الماء، النار التي تتمثل في قلق الشاعر وحبه وشوقه وانتظاره، والماء يتمثل في حضور ليلى بعذوبتها وقدرتها على اخماد نار القلق الوجودي الذي يعاني منه الشاعر المفارق. فكان للماء دور حيوي في الاخبار عن عاطفته. فقد شكلت ثيمة الماء مناخاً طاغية بكل اشكاله المختلفة، بل بمعانيها المختلفة على النصوص المختارة.

The Water in the Poetry of Qais Bin AlMulawah

Key Word: Water- Qais Bin Al Mulawah- Poetry

Asst. Prof. Dr. Ann Tahseen Mahmoud Al-Chalabi
Dept. of Arabic Language/College of Arts
University of Mosul

Water, in the human literary heritage, is related to life, survival, birth, creation, purification, fertility, and hope. It appears in the poetry of Qais bin Al-Mulawah in different forms, absorbing the poet's emotional transformations and his emotional and spiritual turns, to become a symbol of love by which he lives, and in which the self achieves the act of life. Thus, by losing love, his life desolates and dries up spiritually and intellectually. The presence of water in his poetry is distinguished between the image of "upper water" and the image of "lower water", as the first is represented by the image of the potential, the expected and the hoped, even if it sometimes turns into clouds obscuring the light and obscuring life. The second represents the image of the continuous reality of flow, fluctuation and transformations which sometimes constitutes an explosive destructive force. In light of this and that, the poet lives all the watery rituals, so his life was clouded at times, and it rained at other times.

الهوامش:

(١) ينظر: الماء والاحلام، دراسة عن الخيال والمادة، باشلار، ترجمة: علي نجيب ابراهيم: 139 .

(٢)المقدس عند العرب قبل الأسلام:، سعد عبود سمار: 101 .

(٣) الكتاب المقدس : 1 .

(٤)الكتاب المقدس، سفر الخروج: 3:17 .

(٥) انجيل متى: 33-14:22 .

(٦) المستظرف في كل فنّ مستطرف، الأبشيهي، تحقيق: عبدالله انيس الطباع: 371 .

(٧) ينظر: رمز الماء في الادب الجاهلي، ثناء انس الوجود: 14-12 . وينظر: ديانة مصر القديمة،ادولف ارمان :17 .

(٨) ينظر: م.ن: 16-15 .

(٩) ينظر: م.ن: 17 .

(١٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر: للمسعودي: 29/1 .

(١١) ينظر: رمز الماء في الادب الجاهلي: 42-45 .

(١٢) الماء والاحلام: 97 .

(١٣) م.ن: 10 .

(١٤) م.ن:138 .

(١٥) م.ن: 200 .

(١٦) ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق وشرح:عبدالستار احمد فراج:142 .

(١٧) م.ن:155 .

(١٨) ديوان مجنون ليلى: 45 .

(١٩) ديوان مجنون ليلى:49 .

(٢٠) م.ن. 185 .

(٢١) ديوان مجنون ليلى:201 .

(٢٢) م.ن. :118.

(٢٣) ديوان مجنون ليلى: 134.

(٢٤) م.ن. :120.

(٢٥) م.ن. : 122 .

(٢٦) م.ن.: 173.

(٢٧) م.ن:97.

(٢٨) م.ن: 98.

(٢٩) ديوان مجنون ليلى :187 .

(٣٠) م.ن:180 .

(٣١) م.ن:248 .

(٣٢) م.ن :126 .

(٣٣) ديوان مجنون ليلى:133 .

(٣٤) م.ن: 45 .

(٣٥)م.ن:66.

(٣٦) ديوان مجنون ليلى:36.

(٣٧) م.ن:44 .

(٣٨) ديوان مجنون ليلى: 102 .

المصادر

- ديانة مصر القديمة، ادولف ارمان، ترجمة: عبدالمنعم ابو بكر،مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1965.
- ديوان مجنون ليلى: جمع وتحقيق وشرح: عبدالستار احمد فراج، دار مصر للطباعة، مصر، 1979 .

- رمز الماء في الادب الجاهلي: ثناء انس الوجود، مكتبة الشباب، مصر، د.ت.
- الكتاب المقدس، كتب العهد القديم والعهد اغلجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الاوسط، مصر، 1995 .
- الماء والأحلام، دراسة عن الخيال والمادة: غاستون باشلار، ترجمة: علي نجيب ابراهيم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007 .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي، مراجعة: محمد محي الدين عبدالحميد، دار الرجاء للطبع، بغداد، د.ت.
- المستظرف من كل فن مستطرف: شهاب الدين الابشيهي، تحقيق: عبدالله انيس الطباع، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت.
- المقدس عند العرب قبل الاسلام: سعد عبود سمار، تموز للطباعة والنشر، دمشق، 2019 .